شرح كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد

الشيخ علي سلطان الجلابنة

الفصل الثالث للعام ١٤٣٧

معهد العلوم الشرعية العالمي
تابع لملتقى طالبات العلم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وصلى الله وسلم وبارك على نبينا الكريم وعلى آله وصحبه والتابعين أما بعد؛

سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم، ولا سهل لنا إلى ما سهلته لنا إنك يا مولانا جواد كريم، وبعد؛ يا رب لك الحمد كما ينبغي لجلال وجهك ولعظيم سلطانك. بسم الله الرحمن الرحيم {وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ}[العصر: ١-٣]. وبعد أخواتي في الله أسأل الله ﷻ أن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل، ونسأله ﷻ وتعالى أن يبارك لنا في أوقاتنا وأن ييسر لنا في هذا الفصل ختم كتاب التوحيد، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

(المتن)

معهد العلوم الشرعية ١٤٢٩هـ

وصلنا إلى قول المؤلف –عليه رحمة الله–: باب قول الله تعالى:

{أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا} [١] الآيات. وقوله: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ} [٢] وقوله: {وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا} [٣] الآية. وقوله: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ} [٤] الآية.

عن عبد الله بن عمرو –رضي الله عنهما–، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به». قال النووي: حديث صحيح، رويناه في كتاب "الحجة" بإسناد صحيح.

وقال الشعبي: كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة؛ فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد؛ لأنه عرف أنه لا يأخذ الرشوة. وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود؛ لعلمه أنهم يأخذون الرشوة، فاتفقا أن يأتيا كاهنًا في جهينة فيتحاكما إليه، فنزلت: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ} الآية.

وقيل: نزلت في رجلين اختصما، فقال أحدهما: نترافع إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وقال الآخر: إلى كعب بن الأشرف، ثم ترافعا إلى عمر، فذكر له أحدهما القصة. فقال للذي لم يرض برسول الله صلى الله عليه وسلم: أكذلك؟ قال: نعم، فضربه بالسيف فقتله.

(الشرح)

---

(١) النساء: ٦٠.
(٢) البقرة: ١١.
(٣) الأعراف: ٥٦، ٨٥.
(٤) المائدة: ٥٠.

هذا الباب أخواتي –بارك الله فيكم– باب مهم جدًا، وموضوع هذا الباب هو قضية الحكم والتحاكم إلى غير ما أنزل الله، والحكم والتحاكم يجب أن يكون لله ﷻ، وأما أن يكون إلى غير ما أنزل الله. وهذا الباب مهم جدًا يا أخواتي المستمعات والأصليات.

وعلاقة هذا الكتاب بكتاب التوحيد، أن التحاكم والحكم يتنافيان وتوحيد الربوبية؛ فهذا الباب من الأبواب العظيمة في هذا الباب، ذلك أن ثواب الله ﷻ بالوحدانية في ربوبيته وفي إلوهيته يتضمن؛ بل ويقتضي ويستلزم أن يُفرد ﷻ وتعالى في الحكم.

الشيخ –رحمه الله– محمد بن عبد الوهاب عقد هذا الباب ليبين أن الحكم بما أنزل الله ﷻ فرض، وأن ترك التحاكم أو الحكم بما أنزل الله ﷻ وتحكيم غير ما أنزل الله ﷻ في شئون المتخاصمين، وتنزيل ذلك منزلة القرآن العظيم، هذا شرك أكبر بالله ﷻ؛ بل هو كفر مخرج عن ملة محمد ﷺ.

الآية الأولى التي ذكرها: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُواْ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُواْ إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُواْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلاَلاً بَعِيدًا} الآيات. يعني: يا محمد يستفهم الله ﷻ وهذا الاستفهام استنكاري والخطاب موجه للنبي ﷺ، ويستنكر الله ﷻ أولئك القوم الذين يزعمون ويدعون، وهذه الدعوة فيها كذب، يزعمون ماذا؟ يزعمون ويدعون أنهم آمنوا بما أنزل وأنزل من قبلك بالقرآن العظيم وبالكتب السماوية التي أُنزلت على نبينا من قبلك.

ما الدليل على أن هذا الزعم كاذب؟ قالوا: يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت، يعني: يعدلون بكتاب الله ﷻ وسنة النبي ﷺ غيرهما من الشرائع، وليس من الشرائع، وغيرهما من الأحكام الوضعية، والأعراف الجاهلية أو ما شابه ذلك.

بمعنى: يرغبون ويميلون عن هذا إلى ذاك، وهذه الكلمة لها دلالة عظيمة في فهم الآية، فمن أحب أو رغب في التحاكم إلى الطاغوت، فهو ممن يزعم أنه آمن. الذي يحب أو يرغب أن يتحاكم إلى الطاغوت أو إلى غير الله، فهو من القوم الذين يزعمون أنهم

آمنوا.

والطاغوت صيغة مبالغة من الطغيان، وابن القيم –عليه رحمة الله– عرفوا تعريفًا من أجمل التعاريف، فقال: الطاغوت هو كل ما تجاوز به العبد حده، من معبود أو متبوع أو مُطارد.

فهو قد أمروا أن يكفروا به، يعني: في القرآن العظيم وفي الشرائع التي قبله، أن يكفروا بهذا الطاغوت، ويريد الشيطان أن يضله ضلالًا بعيدًا، أن يتعافي إلى غير الله ﷻ، وإلى غير سنة النبي ﷺ. وأن يزين له هذه القضية ويضلهم بها ضلالًا بعيدًا.

الآن أول قضية ينبغي لنا فهمها هي حكم التحاكم إلى غير ما أنزل الله ﷻ، انتظروا أخواتي هذه قضية مهمة جدًا، يقول: التحاكم أو الحكم بغير ما أنزل الله ينقسم إلى قسمين: –

أما أن يكون شركًا أكبرًا أو أن يكون كفرًا أصغرًا. والشرك الأكبر في قضية الحكم ينقسم إلى ستة أقسام أو ستة أنواع: النوع الأول: أن يجحد حكم الله ﷻ، يقول: لا يوجد شيء اسمه حكم الله. فإذا جحد حكم الله ﷻ فقد أشرك.

النوع الثاني: أن يحكم أو يتحاكم بغير ما أنزل الله ﷻ على أنه أحسن من حكم الله.

والنوع الثالث: أن يعتقد أن هذا الحكم الذي هو بغير ما أنزل الله مثل حكم الله ﷻ، فهما سواء.

النوع الرابع: أن يعتقد أنه يجوز التحاكم أو يجوز الحكم بغير ما أنزل الله ﷻ.

النوع الخامس وضع محاكم قانونية، أو وضع تشريعات تخالف الشرع، وهذا خاص بالحاكم.

النوع السادس: التحاكم إلى الأعراف عند التنازع والخصومات. وبعضها نسميها السلوك عند أهل البادية موجودة، أو عند القبائل. وهم الذين يتحاكموا فيه رؤساء العشائر. وهذا أمر خاص بأهل البادية.

هذه الأنواع الستة كلها مندرجة تحت الشرك الأكبر يا أخواتي، إذا جحدوا حكم الله ﷻ إذا ظنوا أن حكمهم أحسن من حكم الله ﷻ أو أنه مساوٍ لحكم الله ﷻ، أو أنه يجوز التحاكم إلى غير ما أنزل اللهﷻ.

أو وضع محاكم قانونية وفق ضوابط وتشريعات تخالف الشرع أو تحاكم إلى الأعراف التي تكون عند أهل البادية بالسلوم وما شابه ذلك، كل هذا شرك أكبر.

القضية الثانية وهو الحكم بغير ما أنزل الله، لكن يكون حكمه كفرًا أصلًا، أو كفر دون كفر، وهو يتم لهذه القضية، وهو ينتبه لهذه القضية، إذا تحاكموا أو أن يحكم في قضية معينة، لما يخالف الشرع من غير قانون وتشريع طبعًا.

فقولنا في قضية معينة، خرج من هذا الكلام ما كان لو عادته أو يضرب عليه الحكم به، فمثلًا أعطيكم مثالًا، هناك حاكم دائمًا يقطع يد السارق، فجاءه في يوم من الأيام سارق فلم يقطع يده، فقال: السجن ثلاث أشهر، لما نظرنا إليه ابن عمه أو قريب له، أو صديقه.

فحكم بغير ما أنزل الله في هذه القضية، بعد أسبوع جاءه إنسان آخر سرق فقطع يده، فنقول: هذا رجل حكم في قضية معينة، وهذا لا يُعد كافرًا بل يُعد كفر دون كفر، أو يُعد من أصحابا الأهواء، أو يعني له حكم دون الكفر.

إذا فهمنا هذه القضية ارتحنا في هذه المسألة.

ثم قال: قول الله ﷻ: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ قَالُواْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ} وقوله: {وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا }. يعني: لا تفسدوا في الأرض فسادًا حسيًا أو معنويًا، والفساد الحسي كأن يقطع الأشجار أو يخرب ديارها، والفساد المعنوي يكون بنشر الكفر والمعاصي وما شابه ذلك.

فالإفساد على نوعين، أما إفساد حسي أو مادي أو إفساد معنوي من معاصي وكفر وخلاف ذلك. بعد إصلاحها أي: بعد ما أصلحها الله ﷻ، بإرسال الرسل والكتب

وتقرير الشرائع، والإفساد بعد الإصلاح أعظم وأشد من أن يمضي الإنسان في فساده قبل الإصلاح.

لأن الإنسان قبل الإصلاح في الأمر أخاف من أن يأتي إفساد بعد إصلاح، قال: {وَلا تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ}[الأعراف: ٥٦] ادعوه خوفًا شر لا يأمن وقوعه، وطمعًا هو توقع حصول الأمور المحبوبة. وأسأل الله ﷻ أن يجعلنا من المحسنين؛ سواء كان الإحسان بالجاه أو بالمال أو باليد.

مسألة: متى يكفر من تحاكم أو حكم بغير ما أنزل الله ﷻ؟ والآن أي: إنسان يحكم بغير ما أنزل الله نقول: حكمه على الكفر الأكبر أو الكفر الأصغر، وهل الإنسان دائمًا يكفر؟ نقول: إذا اجتمعت فيه بعض الشروط التي سأذكرها الآن، فالإنسان يكون معفوًا من الكفر أو لا يكون عليه الكفر.

الشرط الأول: أن يكون اتخاذه سليمًا، يعني: يرى وجوب التحاكم ويشعر أنه عاصٍ بهذه القضية.

الشرط الثاني: أن يكون في المسائل القليلة، أما إذا كان التحاكم أو الحكم بغير ما أنزل الله ﷻ فهدفه.

الشرط الثالث: أن لا يكون في قضية تامة، بل يكون في قضية معينة، وهذه كله مندرج، المذكور قبل قليل أن يكون في قضية معينة. وإذا أُكره على التحاكم على القوانين الوضعية؟ فهل يكفر؟ الجواب: لا. بشرطين: أن يعتقد بطلان ما تحاكم إليه، وأن يكون قلبه مطمئن بالإسلام، ثانيًا: أن يكون إكراهه إكراه مجزئ، بهذين الشرطين يُعذر هذا الرجل مُكره على التحاكم على القوانين الوضعية.

ثم قال: وقوله: {وَلاَ تُفْسِدُواْ فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاَحِهَا } مثل الآية التي قبلها، ولا تفسدوا الفساد الحقيقي كما قلنا قبل قليل. إنما نحن مصلون أنهم يرون، والإكراه يُقسم إلى قسمين: إكراه مجزئ وإكراه غير ملجأ، والعلماء تكلموا في قضية الإكراه الملجأ

كلامًا كثيرًا وأظن والله أعلم أن الله تعالى أعلم الكثير من الناس إكراههم غير ملجأ، والمسألة طبعًا عظيمة.

لذلك أنا أقعد القواعد والباقي على الطلاب أن يفهمه، واضح بارك الله فيك. وهنا لا يُعقل أن يكون هناك إنسان حاكم عظيم دولة عظمى، ويقول: أنا مُكره. أنت حاكم كيف تُكره؟ إذا أنت مُكره اترك الحكم لغيرك.

هم يقولون: إنما نحن مصلحون. يريدون الإصلاح ولكنهم يفسدون في الحقيقة، وإلا أنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون. يعني: الوحي ينزل على النبي ﷺ، يُكثر نفاقهم وخداعهم للنبي ﷺ. ومناسبة هذه الآية هذا تحاكم بغير ما أنزل الله من أكبر الفساد في الأرض. مناسبة هذه الآية والآية التي قبلها.

ثم قال بعد ذلك: وقوله: {أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ}[المائدة: ٥٠]. وهنا استفهام استنكاري أيضًا وفيه توبيخ: يعني: يا محمد هؤلاء القوم، يريدون حكم الجاهلية وكل حكم لا يُستمد من كتاب الله ولا من سنة النبي ﷺ يريدون هذا الحكم ومن أحسن من الله حكمًا، يستنكر الله ﷻ يعني استفهام وينفي، يعني: لا أحد يُوجد.

معهد العلوم الشرعية

تم هذا الدرس يوم السبت بتاريخ ١٦\صفر\ ١٤٣٧ هـ الموافق28\11\2015 م